

قضايا التمدن والحضارة في الفكر الخلدوني

د. المصطفى لخم

- -

تشكل قضايا العمران الحضري، إلى جانب قضايا العمران البدوي، حجر الزاوية في الرؤية الخلدونية للتاريخ والمجتمع¹. فقد تناول ابن خلدون العمران الحضري في أبعاده السوسيو-اقتصادية والسياسية والثقافية، وشدد على العلاقة التي ربطت الحاضرة بالبادية وبالدولة، ووقف على الأسباب المؤدية إلى نمو المدن وفسادها أو خرابها، وتوقف عند الشروط البيئية والإستراتيجية التي يجب مراعاتها عند اختيار مواقع المدن. وللتعبير عن أبعاد العمران الحضري والتحولات التي تطرأ على الحياة الحضرية استعمل ابن خلدون مفاهيم الحضر وأهل الحضر، وأجيال الحضر، والحاضرة، والحضارة، واللغة الحضرية، والتمدن، والمدينة، والدعة، والترف، والغنى، والرفه، وانقراض العمران، وخراب العمران، وفساد العمران...

أ- التمدن الإرادي أو الانتقال من البداوة إلى الحضارة

التمدن أو التحضر في الفكر الخلدوني حلقة من حلقات تطور العمران البشري، وتجسيد للانتقال من البداوة إلى الحضارة على أساس أن "البداوة أصل للحضر"². إن مفهوم الحضر، في الفكر الخلدوني، يشمل أهل المدن والأرياف الذين يعيشون من ممارسة المهن أو من التجارة³. فالحضر، حسب ابن خلدون، "معناه الحاضرون، أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة"⁴. إن العناصر البدوية التي تشملها عملية التحضر تتمثل، بالدرجة الأولى، في المزارعين الذين يشكلون عنصراً وسيطاً بين البدو والحضر. فباختيارهم التشبث بالأرض أو الاستقرار وامتثال الزراعة، خلق المزارعون شروط

"

"

-1

131 1986 -

.98-97

1993- 1413 -

-2

-3

.58 1980 -

.96 1،2

-4

العمران الحضري داخل البادية⁵. فالأمر يتعلق هنا بأنصاف البدو وأنصاف الحضر، وبالتالي فحضرية المزارعين "حضرية مؤقتة" لأن العمران عند ابن خلدون تطرأ عليه تغييرات تتحكم فيها عوامل متصلة بالبيئة وتأثيراتها وتقلباتها⁶. فالتطور السلبي و انسداد الأفق لأسباب ما (الجفاف، المجاعات، الأوبئة، الحرب...) يعيد المزارعين إلى حياة البداوة، والتطور الإيجابي يؤدي بهم إلى التمدن والسكون والدعة بحيث يتخذ العمران شكلا أكثر تقدما⁷.

يؤشر السكون والدعة على دخول النواة الحضرية في عملية التطور التدريجي التي يصاحبها ارتفاع في عدد السكان، إذ تبدأ القرية أو المدينة الناشئة في لعب دور المغناطيس حيث تجذب موجات من المهاجرين أو النازحين من بدو النواحي والقرى المجاورة على أساس أن "التمدن غاية للبدوي يجري إليها"⁸. وتؤدي هذه الحركية السكانية إلى استقرار عدد كبير من البدو في المصر الناشئ، وهي المسألة التي يشدد عليها ابن خلدون في قوله: "ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصري قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصري وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر"⁹.

يؤشر السكون والدعة أيضا على بداية عملية تحول ضخمة تشمل "الأحوال والعوائد"¹⁰ وما يصاحبها من حركية الانتقال من "الضروري من المعاش" القائم أساسا على الزراعة وتربية المواشي وبعض الصناعات الخفيفة التي تتعلق في معظمها بأدوات الزراعة وبالسكن واللباس إلى "الكمالي من المعاش" الذي يتأتى من دوام الاستقرار في القرى التي تتوسع حتى تصبح مدنا. وتماشيا مع هذه النظرية التطورية من أسفل إلى أعلى، ينتقل السكان من حياة التقشف والبساطة في العيش إلى حياة الغنى والترف، من سكنى الأكواخ والبيوت البسيطة الضيقة إلى تنظيم المجال الحضري وإقامة المنشآت المعمارية من بيوت واسعة وقصور وصروح بما يتناسب ومستويات عيش الشرائح الاجتماعية¹¹. هذا ما نستشفه من قول ابن خلدون: "ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر. ثم تزيد

-5	.60				
-6	"	(9):	" ...
	()	7408	28	(2006/5/4)	.8
-7	.60				
-8	.97	3،2			
-9	.98				
-10	.97				
-11					

أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوات واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالجة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاه في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها، وبيالغون في تنجيدها، ويختلقون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون¹².

ب- التمدن الموجه أو الوجه السياسي للعمران الحضري:

إذا كان وجود خزان بشري في المجالات البدوية المحيطة بالقرية يعتبر عاملاً أساسياً في تطورها وتحويلها إلى نواة حضرية، ثم إلى مدينة صغيرة أو متوسطة الحجم، ثم إلى مدينة مستبحرة العمران، فإن عملية تحول بهذه الضخامة وهذا الزخم لا يمكن أن تتم إلا في إطار وجود الدولة أو الملك. وتقوم حجج ابن خلدون في هذا الباب على مجموعة من المراكز والمسلمات:

1- الدول أقدم من المدن والأمصار، فهذه الأخيرة هي نتاج لوجود الأولى، لأن بناء واختطاط المنازل مطلب حضاري له علاقة بأحوال الترف والدعة التي لا تستقيم إلا بوجود الدولة والملك الذي يصهر على تمصير الأمصار واختطاط المدن¹³.

2- إن اختطاط المدن فعل حضاري لا تتخذه إلا الأمم المتحضرة العارفة بشروط التمدن، وعلى رأسها الشروط البيئية والإستراتيجية الواجب مراعاتها عند اختيار مواقع المدن، وهو أمر لا يتأتى إلا عبر تراكم التجارب والخبرات. وبالتالي، فقرار الاختيار لا يمكن أن يصدر إلا عن صاحب الملك بعد استشارة ذوي الخبرة والعلم، لأن أي خطأ من قبل الواضع قد يعرض المدينة للزوال. ولهذا، حرص ابن خلدون على إعادة صياغة تلك الشروط التي استقاها من علماء السياسة الشرعية¹⁴ وقسمها إلى قسمين:

. شروط دافعة للمضار الأرضية والسماوية:

- أن يكون الموضع محصناً تحصيناً طبيعياً حتى يصعب على العدو الوصول إلى المدينة والنيل منها. وإذا تعلق الأمر بمدينة ساحلية، فيجب أن "تكون في جبل أو بين أمة موفورة العدد" قادرة على نصرتها والدود عنها متى تعرضت لأي هجوم بحري، كما هو الشأن بالنسبة

12- 1/2 96.

13- 1/4 270.

"

14-

"

- 1978 152.

لجاية وسبتة¹⁵. لأنه إذا لم تكن المدينة في " موضع متوعر من الجبل، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية، سهل على العدو طرقها في الأساطيل البحرية"، في ظل عدم قدرة سكانها الحضر عن الدود عن حماها. ومن المدن التي عانت من سوء اختيار مواقعها ذكر ابن خلدون الإسكندرية، وطرابلس، وعنابة (بونة) وسلا¹⁶. وفي كل الأحوال لا بد من إحاطة المدينة بسور أو سياج من الأسوار.

- اختيار المواضع الطيبة الهواء أي البعيدة عن المستنقعات والبيئات الملوثة حتى لا تتضرر صحة الإنسان والحيوان. وفي هذا ما يدل على الربط الواعي بين جودة الهواء وبين الحالة الصحية والنفسية للإنسان الذي تتأثر حياته ونشاطه بذلك تأثراً واضحاً.
شروط جالبة للمنافع الأرضية والسماوية:

- قرب الماء، كأن يكون البلد على نهر، أو بإزائه عيون عذبة، لأن ذلك يسهل على الساكن الحاجة إليه، وهي ضرورية، فيكون له في وجوده مرفقة عظيمة عامة.
- طيب المراعي للسائمة وقربها، إذ لا بد لذي قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب. فمتى كان المرعى قريباً، كان ذلك أرفق بحال السكان، لما يعانون من المشقة في بعده.

- قرب المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فمتى كانت كذلك، كانت أسهل في الاتخاذ وأقرب في التحصيل.

- قرب الشجر (الغابة) للحصول على الحطب الذي يستخدم كوقود للنيران للاصطلاء والطبخ، وعلى الخشب الذي يستعمل في المباني وخاصة في التسقيف وفي أمور أخرى كثيرة.

- قرب البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. وفي هذا دليل على مدى حاجة المدن للتجارة الخارجية التي تتم عبر الطرق البحرية والبرية، والتي تمكن الأمصار من الحصول على الضروريات والكماليات¹⁷.

3- نزول الأمصار واختطاطها مطلب يدعو إليه الملك. فعملية تأسيس الملك وتثبيتته ضد الخصوم والمنافسين تفرض على العصبية والقبائل التي يؤول إليها الحكم ضرورة الاستيلاء على الأمصار إن وجدت أو استحداث مصر جديد يكون مقراً للعصبية والأسرة

1234/ 633

15_

:

1960 347-346.

()

16_-

1260/ 658 14

424-422

:

5/4 275-273

17_-

الحاكمة تحتمي بأسواره وتحقق فيه ما تصبو إليه من دعة وراحة وترف ببناء القصور، وإجراء المياه، وغرس الرياض¹⁸.

4- إن البنية المعمارية للمدينة تتكون عادة من مباني خاصة ومباني عامة. ونظرا لما تتميز به المباني العامة أحيانا من ضخامة في الهياكل، فإن تشييدها يحتاج إلى الجهد المشترك للسكان الذي لا يتحقق بشكل فطري بل بفضل عصي الملك والأمل في الثواب الإلهي أي بالترهيب والترغيب¹⁹. والدولة القوية وحدها قادرة على حشد الصناعات والفعلية والعارفين والعمال وتوفير الإمكانيات المادية (أموال، آلات، مواد بناء) اللازمة لتشييد الصروح والمصانع الضخمة. وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بمسألة التناسب بين قوة الدولة وحجم وروعة الصروح التي تشيدها هذه الدولة²⁰. وهناك من المباني الضخمة التي تطلب تشييدها تضافر جهود العديد من الملوك²¹.

5- ما أن تنشأ المدينة ويكتمل تشييدها حتى يغدو استمرارها أو زوالها رهنا بالدولة التي أوجدتها أو استلمت زمام أمورها. فإذا طال أمد الدولة تزداد فرص تطور المدينة، فتكثر بها المصانع والمنازل الرحيبية، ويتسع نطاق أسواقها ويكبر مجالها الحضري؛ فبغداد كانت في عهد المأمون تتكون من أكثر من أربعين مدينة ومصر، وتتوفر على خمسة وستين ألف حمام. وإذا لم تعمر الدولة طويلا تتعرض المدينة للخراب ويتراجع عمرانها كما حدث للعديد من مدن المشرق والمغرب في العصور الإسلامية، وخاصة تلك التي لم تكن المجالات البدوية المحيطة بها تتوفر على خزان بشري قادر على تزويدها بالسكان على المدى البعيد. ومن الأمثلة الدالة على تراجع العمران أو خراب المدن نتيجة لزوال الدول ذكر ابن خلدون الكوفة في العراق، والقيروان وقلعة بني حماد في المغرب الإسلامي. فاستمرار المدينة وزوالها ليس رهنا بوجود الدولة وانقراضها فقط، بل بوجود البدو في النواحي من عدمه. ففاس وبجاية لم يتراجع عمرانهما بعد انهيار دولتي الأدارسة وبني حماد، لأن سكانهما ظلوا يتزايدون بفضل نزوح البدو الباحثين عن وسائل الراحة والدعة والترف. وبذلك يكون ابن خلدون قد اعترف بإمكانية استمرار المدينة في ظل غياب الدولة؛ ولكن الاستمرار لا يعني التطور الذي، حتى وإن وجد، يظل بطيئا أو قاصرا. فالمدينة لا تسترجع دينامية التطور إلا إذا اتخذتها دولة أخرى عاصمة للملك. ففي هذه الحالة تستفيد المدينة من قدرات الدولة الجديدة في مجال الاستثمار في العمارة وأحوال

					271	2/4	132	12/3	-18	
.138	1981							270	1/4	-19
				(272-271	3/4)				-20
								()	
								273-272	5/4	-21

"فالأمصار التي في القاصية، ولو كانت موفورة العمران، تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذهبها؛ بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم، كالماء يخضر ما قرب منه مما قرب من الأرض؛ إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد"³⁰. ومع ذلك تبقى كثرة السكان عاملاً أساسياً لتطور الحضارة في المدن والأمصار، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون عندما تحدث عن التناسب بين "حال الدولة في القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الجيل، وعظم المدينة أو المصر، وكثرة النعمة واليسار (...). فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا أيضاً وكثرتهم، يكون مال الدولة. وأصله كله العمران وكثرتهم"³¹. ومما يميز المدن المستبحرة في العمران عن غيرها، حسب ابن خلدون، تعدد وتنوع الصنائع. فبالإضافة إلى الصناعات الذين يوجدون في كل مصر كالبنا والنجار والحداد والخياط وأمثالهم، يوجد "بالمدينة المستبحرة في العمارة الأخذة في عوائد الترف والحضارة" صناعات أخرى مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفرش والدباغ وغيرهم، كما أن "الأمصار المستحضرة المستبحرة في العمران" تختص، دون غيرها، بوجود مجموعة من المرافق وعلى رأسها الحمامات³². إن مثل تلك الصنائع لا توجد إذاً إلا في المدن الكثيرة العمران (السكان) لما لها من ارتباط بمستوى الحضارة التي "تتفاوت بتفاوت العمران؛ فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل"³³. إن كثرة العمران الحضري وأنواع الصنائع وحجم ونوعية الإنتاج وظروف عيش السكان (الغذاء، اللباس، الفراش، السكن...) هي العناصر التي اعتمدها ابن خلدون لتحديد التفاوت الحاصل على مستوى تمدن وتحضر المدن والأمصار الموجودة أو المتواجدة في نفس المجال الجيو- سياسي والجيو- اقتصادي أو في مجالات مختلفة. فالفارق بين ضالة وعظمة الحضارة يتناسب طردياً مع ثروة المدن وتفاضلها في "القلة والكثرة"³⁴. فمن خلال تجربته ورحلاته³⁵ وأطلاع الواسع على الأوضاع المعاشية في مدن وقرى المغرب الإسلامي على وجه الخصوص، لاحظ ابن خلدون ارتفاع مستوى العيش في مدينة فاس مقارنة مع العديد من المدن كجاية وتلمسان وسبتة ووهران والجزائر وقسنطينة وبسكرة التي وضعها في آخر القائمة. ولتقديم البيئة على ذلك قام ابن خلدون بمقارنة أحوال السكان في فاس وتلمسان في عصره، فأشار إلى أن القاضي بفاس المرينية كان أغنى من القاضي في تلمسان الزيانية، وأن

-30- 17/4 291.

-31- 292.

-32- 20/4 297.

-33- 18/4 293.

-34- 139.

-35-

ذلك التفاوت في مستويات العيش يسري أيضا على بقية الأصناف من أمراء وتجار وصناع وسوقه وشرطة. ويقوم ذلك التفاوت على أساس الدخل و الخرج أي المداخيل والمصاريف التي كلما كانت "أكثر تكون الأحوال أعظم". ولا يقتصر التفاوت على الأرستقراطية والبرجوازية والنشيطين من السكان فقط، بل يشمل أيضا الفقراء والمتسولين. فالمتسولون في فاس كانوا أحسن حالا من نظرائهم في تلمسان أو وهران، إذ يذكر ابن خلدون أن الشحاذين في فاس لم يكونوا يتورعون في مطالبة المحسنين بأثمان أضاحي العيد أو باللحم والسمن وعلاج المطابخ والملابس والماعون، كالغريبال والآنية، وهي أمور تدخل ضمن "أحوال الترف" التي لو تجرأ متسولو تلمسان أو وهران على السؤال عنها لكانوا عرضة للاستنكار والعنف والزجر. ولكن، ورغم ارتفاع مستوى عيش سكان بعض مدن المغرب، فإن أحوالهم من الترف والغنى في العوائد كانت أقل بكثير من أحوال أهل القاهرة مما جعل الكثير من فقراء المغرب يهاجرون إلى مصر³⁶.

إن التفاوت الحضاري لا يقتصر على أحوال المعاش والمسكن والبناء وما ارتبط بها من صنائع، بل يتجلى أيضا على المستوى الثقافي على اعتبار "أن الحاضرة هي مكان انطلاق العلم وتطوره"³⁷، و"أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"³⁸. وقد ركز ابن خلدون على مدينة القاهرة التي كانت في عصره مركزا للعلم والتعليم، وذلك بفضل الجهود التي بذلها السلاطين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي حيث "استكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة (...). فكثر الأوقاف لذلك وعظمت الغلاة والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها"³⁹.

هـ- طباع أهل الحضر:

أصدر ابن خلدون أحكاما قاسية عند تناوله لطباع أهل الحضر. فعلى خلاف البدو الذين تتحكم الفطرة في سلوكهم، يتميز الحضر بالشر وسوء السلوك وقلة الحياء أو انعدام الحشمة بحيث لا يتورعون في التلفظ بالكلام الفاحش في مجالسهم وبين كبار القوم والأقارب ودوي الأرحام والمحارم دون رقيب ولا حسيب "لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً". ولا يقف ابن خلدون عند هذا الحد، بل ينعت أهل الحضر بالفسق والجراية على الكذب والمقامرة والغش والسرقة والفجور في الأيمان والرياء في البياعات والمكر والخديعة ودمامة الأخلاق. ويعزو ابن خلدون التلوث الأخلاقي والسلوكي الذي يصيب الحضر إلى

-36 11/4 284-285.

-37 59.

-38 3/6 344.

-39 345.

إقبالهم على الدنيا وتفننهم في شهوات البطن من المأكول والملاذ والمشارب وطيبها، وفي شهوات الفرج بأنواع المناكح، وهي أمور تحدث عندما تصبح الحضارة غاية العمران⁴⁰. وفي معرض المقارنة بين أهل البدو وأهل الحضرة، يلصق ابن خلدون بالحضر صفات الجبن، والميل إلى الخضوع للسلطة والاعتماد على الولاة والحكام والحاميات والأسوار للدفاع عن أنفسهم وحماية ممتلكاتهم. ويذهب ابن خلدون إلى أن غياب رباطة الجأش لدى أهل الحضرة لا يتأتى فقط بإلقائهم السلاح لعدة أجيال، بل لأسباب أخرى تتمثل أساساً في لجوء الحكام إلى القهر والسطوة والإخافة لكسر شوكتهم، أو إلى العقاب والتأديب لإذلالهم. وغالباً ما يساهم التأديب الممارس من قبل المربين والمشايخ والأئمة في تعليم الصنائع والعلوم والديانات في ذهاب منعة ويأس المتعلمين والطلبة. فحيث يتناقص الدين ويصير الشرع علماً وصناعة بالتعليم والتأديب، ينصاع الناس وينقادون إلى الأحكام السلطانية والتعليمية التي تفسد البأس لأن اللوائح فيها أجنبي⁴¹.

و- أسباب انقراض العمران الحضري؛

إن الدولة في المنظور الخلدوني بقدر ما تساهم في تطور العمران الحضري، بقدر ما تعتبر مسئولة عن فساده وخرابه. فالسياسة المبنية على الظلم المادي والمعنوي كالاستيلاء على أموال وممتلكات الناس بغير حق، ومنعهم من الحصول على حقوقهم، وتسخيرهم للخدمة بدون مقابل، وجباية الأموال التي لم يرضها الشرع ونهب الأموال والأموال على العموم، تؤدي إلى قعود الناس عن المعاش وانقباض أيديهم عن المكاسب، وبالتالي إلى كساد أسواق العمران، وهجرة السكان، وخلو الديار، وخراب الأمصار وانتقاض العمران⁴². كما أن السياسة الاقتصادية القائمة على الاحتكار أو "التسلط على أموال الناس، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع"، وما يترتب عنها من خسائر مالية بالنسبة للتجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق، وسائر السوق، وأهل الدكاكين والصنائع، غالباً ما تؤدي إلى تقاعس الجميع، فيتسبب ذلك في كساد الأسواق، وتناقص جباية السلطان، وتلاشي الدولة وفساد عمران المدينة⁴³. ولا يقتصر الظلم على ما هو اقتصادي، بل يشمل أيضاً العدوان على الناس في حرملهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم⁴⁴.

40-	4/2	99-98	18/4	293-295
41-	5/2	100-99	6/2	101-100

"

"

2 2007 52.

42- 43/3 223-226.

43- 226.

44-

إن تلك الأمور تحدث في مرحلة هرم الدولة ، وهي المرحلة التي تزداد فيها حاجة الدولة والسلطان أو بالأحرى أفراد الأريستقراطية الحاكمة إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال⁴⁵ . وهنا تبدأ مرحلة العد العكسي حيث تصبح "الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره"⁴⁶ . فعندما تصل الحضارة إلى أقصى مستوياتها، فإنها تؤدي، حسب ابن خلدون، إلى فساد الدولة (صورة العمران) وأخلاق أفراد المجتمع (مادة العمران) واحداً واحداً، وبالتالي إلى اختلال نظام المدينة وخرابها⁴⁷ . وبالإضافة إلى فساد النوع البشري أو انقطاعه بسبب انتشار الزنا واللواط⁴⁸ ، يعزو ابن خلدون تراجع العمران الحضري إلى ارتفاع عدد الموتى المترتب عن كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لا اختلال الدولة أو عن الوباء الذي ينتج في الغالب عن التلوث البيئي الذي يصيب عادة المدن الموفورة العمران في أواخر الدولة. لأن كثرة السكان وتقاعسهم عن القيام بواجب النظافة تؤدي إلى تراكم الفضلات التي تتسبب في تلوث الهواء، وانتشار الوباء وارتفاع عدد المصابين والموتى، كما حدث في مدينة فاس بالمغرب⁴⁹ . وعلى رأس الأوبئة التي أدت إلى حدوث أزمة عمرانية حادة في المغرب الإسلامي، ذكر ابن خلدون الطاعون الجارف أو الطاعون الأسود الذي أصاب الشرق والغرب في منتصف القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، وساهم في تراجع عدد السكان، ومحا محاسن العمران، وقلص نفوذ الدول وعجل بانهارها⁵⁰ .

إن ما يدل على أن خراب الأمصار والمدن يرتبط بخراب الدولة وانتقاضها، يتجلى بوضوح في ما يخص التحولات التي تطرأ على المدن العواصم أو الأمصار التي تكون كراسي للملك. فاختلال الدولة وانهارها يؤدي إلى قيام دولة جديدة يغلب على مكوناتها طابع البداوة، فينعكس ذلك مؤقتاً على حياة سكان المدينة. إلا أن اختلال عمران العاصمة وتراجع مستوى الحضارة فيها لا يترتب فقط عن الطابع البدوي للدولة الجديدة، بل ينتج أيضاً عن لجوء الدولة الجديدة إلى إبعاد أو إجلاء أهل الدولة السابقة وأشياعها إلى قطر آخر للتخلص من خطرهم عليها، لأنه "إذا ذهب من المصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه، وهو معنى اختلال عمرانها". وغالباً ما يؤدي انتقال كرسي الحكم من مدينة إلى أخرى إلى انتقال السكان إلى كرسي الحكم الجديد، فيتسبب ذلك في الإخلال بعمران الكرسي الأول، كما حدث لمراكش حينما عدل عنها بنو مرين إلى فاس⁵¹ .

-45	.			
-46	18/4	293		
-47	294		13.	
-48		294		
-49	50/3	237-238	9/4	283:
-50		150-151		
-51		295-296		

- إلى جانب الدولة والحضر، تقع مسؤولية خراب العمران، حسب ابن خلدون، على عاتق البدو الرحل (الأعراب) الذين يتهمهم بالمساهمة في خراب الأوطان التي تغلبوا عليها لعدة أسباب أهمها:
- اقتلاعهم الأحجار والأخشاب من المباني لاستعمالها في حياتهم اليومية، بحيث "صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران".
 - إهمالهم لأهل الأعمال من الصنائع والحرف التي هي أصل المكاسب.
 - إقبالهم كاهل السكان بالجبايات والمغارم⁵².

لكل تلك الأسباب مجتمعة تراجع العمران الحضري في بلاد المغرب الكبير. وقد بلغت عملية التراجع مداها في النصف الثاني من القرن 14/هـ حيث اقتصر العمران في قطر المغرب على الشريط الساحلي والمجالات التلية المتصلة به "بعد أن كان عمرانها متصلا من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة، وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحاري"⁵³.

ز- مبادئ الخراب في الأمصار:

تتم عملية الانقراض الكلي للعمران الحضري، حسب ابن خلدون، وفقا لمبادئ الخراب في الأمصار. فتناقص عدد السكان يؤدي إلى قلة الصنائع وتراجع عملية جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما حيث يتم اللجوء إلى بناء المنازل بآلات المباني التي خلت من أصحابها وتعرضت للخراب، ثم لا تزال الآلات تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار ومن مكان إلى آخر إلى أن يفقد الكثير منها جملة، فتختفي القصور والمصانع والمنازل، ويعود السكان إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التنميق كلية. وبالتالي يصبح بناء المدينة مثل بناء القرى والمدن، وتظهر عليها سمات البداوة، وقد تصير خرابا أو قفرا وفقا لسنة الله في خلقه⁵⁴.

. ملاحظات واستنتاجات:

إذا، فالعمران عند ابن خلدون تطرأ عليه تغييرات لا تكون بالضرورة في الاتجاه السائر نحو الأفضل دوما أي أن مفهوم التطور في الفكر الخلدوني إيجابي وسلبى. فالتطور الإيجابي يؤدي إلى التمدن والتحضر، والتطور السلبي ينتهي بخراب العمران الحضري والعودة إلى البداوة لتكتمل الحركة الدائرية: بادية- حضارة- بادية⁵⁵.

فيما يتعلق ببناء قانونه الخاص بالتطور التدريجي من القرية الصغيرة إلى القرية الكبيرة إلى المدينة مع تدرج في أنماط الإنتاج، اعتمد ابن خلدون على نماذج استقاها في غالب

52-	26/3	118.
53-	14/4	289.
54-	10/4	283.
55-	8	61-62.

الأحيان من مختبره الاجتماعي الخاص الذي هو المغرب الإسلامي في القرون الوسطى التي شهدت خلالها بلاد المغرب تحول العديد من القرى إلى مدن، واختطاط العديد من المدن الجديدة، في حين تعرضت مدن أخرى للخراب⁵⁶.

إن ما يلاحظ على النظرية الخلدونية في مجال العمران الحضري هو إيمانها بسرعة التحول وضخامته، وتركيزها على دور البدو في ذلك التحول. فإذا كان الأصل الأول لسكان المدن يتكون من البدو الذين تحضروا، فإن دورهم يبقى محدودا مقارنة مع الدور الذي لعبته العناصر الحضرية التي استقطبتها المدن الناشئة من مدن أخرى أكثر تحضرا. ويتمثل دور الحضر في مساعدة العناصر البدوية على التكيف مع الحياة الحضرية والاندماج في النسيج الحضري، وفي الدفع بعملية التمدين. وبالتالي، "فأصل الحضارة في مثل هذه الحال هم السكان الحضر، ولعلمهم حضر مهاجرون قدماء، والبدو النازحون من نواحي المدينة مهاجرون جدد"⁵⁷. وخير دليل على ما تقدم ذكره الدور الريادي الذي لعبته الجماعات الأفريقية أو القبروانية والأندلسية أو القرطبية في تحضر مدينة فاس حيث أصبحت العدو الشرقية تحمل اسم "مدينة أهل الأندلس" أو "عدو الأندلس"، في حين عرفت العدو الغربية تحت اسم "مدينة أفريقية" أو "عدو القرويين"⁵⁸. ثم إن النازحين من البدو لم يكونوا كلهم من الأغنياء، بل كان معظمهم من الفقراء مما جعلهم يستقرون في الأحياء الهامشية ويسكنون الأكواخ ويقومون بالأعمال الوضيعة⁵⁹ التي تمتلئها الفئات الخسيسة في مجتمع المدينة الإسلامية⁶⁰.

عند تناوله نشأة المدن وتطورها، ركز ابن خلدون كثيرا على دور الدول في اختطاط المدن وتمصيرها حيث خصص حيزا هاما للمدن التي كانت كراسي للملك، وأهمل ذكر المدن الذي أنشئت بمبادرة من بعض الجماعات المستقلة عن الدول مثل تنس ووهران اللتان أسستهما جماعات بحرية أندلسية في القرن 9/هـ⁶¹. وخلال معالجته للعوامل التي ساهمت في نشأة وتطور العمران الحضري أو تدهوره أولى العلامة اهتماما كبيرا للبنى والعوامل

1994	1	-56
		45-27 171-184.
		-57 274-275.
358-357	1892	-58
	49-48 1999- 1420	2
	25-24 1991- 1411	2
		-59
	285 278-276 1 1983	
161-153 1982 4 29	"	-60
	290 262	-61
	(1218) 726 (1238) 738	-

الداخلية للمدن وأغفل دور التجارة الخارجية وتحول المسالك التجارية⁶². وعند تعرضه لمسألة اختطاط المدن، لم يتناول ابن خلدون أسس إنشاء المدن، وبالتالي لم يتخطى ما يسمى بالحتمية الطبيعية التي تحتم على المخطط أن يبني المدينة بالقرب من الأودية والأنهار، والمجالات ذات الثروات الطبيعية⁶³.

إن الأحكام الذي أصدرها ابن خلدون حول طباع أهل الحضر نجد لها ما يزيكها لدى بعض الجغرافيين⁶⁴ وفي كتب الحسبة⁶⁵، كما نجد لها ما يدحضها لدى علماء السياسة الشرعية⁶⁶ وبعض المؤرخين والجغرافيين الذين تميزت أحكامهم بكثير من الاعتدال⁶⁷. ومن الواضح أن ابن خلدون ركز على مساوئ الحضر لأنه ربط الحضارة بالجاه والغنى. ولعل هذا الأمر هو الذي يفسر اهتمام ابن خلدون المحدود جدا ببعض فئات المجتمع التي سيكون لها أثر منذ عصره وبعد ذلك وهي الفقهاء والأشراف والمتصوفة⁶⁸.

لم يكن الغرض من إبداء تلك الملاحظات التقليل من القيمة العلمية للجهود التي بذلها ابن خلدون لدراسة مشكلات عصره ومجتمعه. فقد أصاب العلامة عندما ربط انقراض العمران الحضري بانهيار دول العصبية، وحينما حمل جزءا من المسؤولية في خراب المدن والأمصار للبدو الذين كانوا يهيمنون على مجالات واسعة من بلاد المغرب، ولنا في روايات

- 62 153-154.
- 63 58 : 1418 - () - () 1997() 80-59
- 64 : 183-182 1985 " : "...
- 65 1931 1955
- 66 2003 - 1424 - 1991 - 1412 204-190
- 67 45-44 " : 32-31
- 68 358 1981 2 2007 30 2006 7 2653

المؤرخين والجغرافيين ما يثبت الخراب الذي ألحقه الأعراب بمدينة مراكش⁶⁹، ويمدّن أخرى ومنها مدينة تاويرت التي اضطّر سكانها، تحت ضغط البدو، إلى الفرار إلى ندرومة⁷⁰.

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث عن عمران حضري يختلف كثيرا عن العمران الحالي⁷¹، فما تزال، حسب أحد الباحثين، كثير من الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المغربي بصفة خاصة متأثرة تأثرا جليا بالمظاهر العمرانية التي لفت انتباه صاحب المقدمة، بالرغم من التحول الذي بدأت تعيشه تلك الهياكل ابتداء من القرن التاسع عشر⁷². فالهجرة من البوادي إلى المدن ما تزال قوية، والدولة هي الفاعل الأساسي في ميادين التمدين والتعمير، والعديد من القرى في طريق التحول إلى مدن، واختطاط مدن جديدة أصبح سياسة للدولة المغربية في السنوات الأخيرة ونهب آلات المباني المهجورة ما فتئت تهدد مآثرنا التاريخية والمدن المندرسة.

					69-
1960	:			3	
			1	135:	306-307
				"	
			1	350.	70-
				5.	71-
				134-135.	72-